الدكتورة دليلة مباركي

أستاذة محاضرة صنف أ

كلية الحقوق و العلوم السياسية

قسم الحقوق

جامعة الحاج لخضر باتنة

- الجزائر-

اللغة و علاقتها بالتنمية البشرية

مقدمة :

اللغة هي تعبير عن هوية الشخص و انتمائه إلى مجموعة معينة و بفقد هذه اللغة يفقد الشخص هويته،لذا يجب علينا أن ننمي هذه الفكرة في أذهان أبنائنا منذ نعومة أظافرهم والعمل على تجسيدها في المناهج التربوية و من خلالها داخل الأسرة الصغيرة ، و برامج التلفزيون الخاصة بالأطفال حتى نتمكن من غرسها غرسا صحيحا في ذاكرة أبنائنا لتنمو معهم كنمو أجسادهم.

و إذا ر جعنا إلى مجتمعنا الجزائري نجد أن المشرع كرس مبدأ اللغة العربية هي الغة الرسمية في جميع الدساتير المتعاقبة منذ 1963 مرور بدستور 1976 ثم دستور 1989 و أخيرا 1996 حيث نص على ذلك في المادة الأولى منه، لكن هذا وحده لا يكفي ما دام لم تجسد تجسيدا فعليا في كافة مناحي الحياة الاجتماعية و السياسية و العلمية و العملية و الثقافية ، صحيح أننا لا نخاف على لغتنا من الموت و الاندثار في الوقت الراهن لكونها تحتل المرتبة الخامسة بين لغات العالم هذا من جهة، ومن جهة أخرى لكونها لغة مليار نسمة يؤدون بها الشعائر الدينية و لكن هذا لا يعني أننا نكتفي بذلك بل لابد علينا ان ننافس اللغات الأخرى علميا و تكنولوجيا.

لذا فللغة العربية علاقة وطيدة في التنمية البشرية للمجتمع و هي وسيلة الحركة الإنسانية كلها، في المجال العلمي والسياسي والثقافي والإعلامي والاجتماعي والتربوي، فاللغة وعاء ذلك كله ووسيلة ذلك كله، وإذا تراجعت اللغة توقفت الحركة الإنسانية،وانقطع الاتصال والتواصل والتفاهم؛ ذلك أن اللغة هي من أهم وأدق المواصلات وأوعية المعلومات وتواصل الأجيال، وإذا كان بإمكان المرء أن يتصور مجتمعًا معاصرًا دون أنظمة الرموز اللغوية المتطورة فإنه لا يتخيله خاليًا من المطابع،والمطبوعات ووسائل الإعلام والهاتف والانترنت، ومن المدارس والجامعات ومراكز البحوث ومن البنوك والأوراق المالية، ومن المواصلات والعلوم بمختلف تخصصاتها...، فتراكم التجارب والمعارف ما كان ليتم إلا بفضل اللغة ومن ثم فإن تقدم الإنسان في جميع جوانب الحياة شاهد على تقدم اللغة، وهذا ما دفع اللغوي الشهير أندرسون إلى اعتبار اللغة الأساس الصلد الذي تقوم عليه قصة الأمة في تعاملها مع الأمم الأخرى .

هذا العرض هو محاولة لاستجلاء مكانة التنمية في المؤسسات اللغوية، وهو بعبارة أخرى يعكس أهم المجالات التي تظهر فيها اللغة كرأسمال يستثمر فعلًا في التنمية البشرية، إنه قراءة في محتوى التقارير اللغوية وأهم الاهتمامات ومجالات الأولوية عند اللغويين، إنه يتساءل بلغة الاقتصاديين والتجار والشركات وأصحاب رؤوس الأموال: ما العائد من تعليم وتعلم اللغة العربية؟

اللغة ومجالات التنمية:

إن علاقة اللغة بالتنمية، هي حقيقة لا تحتاج التدليل عليها، ولكن الذي يهمنا هي المجالات التنموية التي تدخل في دائرة اهتمام اللغة واللغويين؟ وما هي عوائق التنمية العربية؟ ونخص بالتحليل والمناقشة المعوقات اللغوية تحديدًا؛ وذلك بالإجابة عن التساؤلات الآتية: ما هي نقاط القوة التي يمكن أن تتشكل في تقاطع اللغة بالهوية، واللغة بالدين، واللغة بالاقتصاد، واللغة بالمعلومات، واللغة بالسياسة، واللغة بالتعليم...؟ للحديث

عن وضع اللغة العربية في الوقت الحاضر واستجلاء قضاياه البارزة لابد من التذكير ببعض الحقائق المتصلة بماضي هذه اللغة وتاريخها.

فاللسان العربي يعتبر أول لسان يعمر طويلًا، حوالي سبعة عشر قرنًا، محتفظًا بكل مقوماته وبنيانه الداخلي، وهذا عامل قوة للعرب لتراكم المعلومات، لأن الخروج من لسان إلى لسان كسقوط الأنظمة والدول يدعو إلى البدء من جديد في سلم الحضارة.
إن اللغة العربية قد ارتبطت في تطورها وتقدمها ولحظات قوتها بالعقيدة والدين الإسلامي، فهي لغة القرآن والسنة ولذلك ارتبط رصيدها الثقافي والفكري أو معظمه بهذه الأصول وما يتفرع عنها، ومن هنا اكتسبت اللغة العربية عند الخاصة والعامة صبغة القداسة والتوقير اللغة العربية كسائر اللغات كائن اجتماعي حي تسري عليه سنن التطور والتجديد ويتوقف عليها بقاؤه، وقد تبين لعلماء اللغة في صدر الإسلام هذه الطبيعة النسبية للغة في مقابل إطلاقية النص القرآني، فلم يترددوا في إصلاح اللغة العربية وتطويرها بما أقدموا عليه من تأصيل قواعد النحو والصرف والإعراب، ووضع أنظمة الخط كتطوير الخط والشكل والتنقيط والمد والوصل والإمالة، وصناعة المعاجم والرسائل الموضوعاتية من غير أن ينكر عليهم أحد هذا الصنيع (1) .

معوقات انتشار اللغة العربية:

يشهد تاريخ اللغة العربية أهم الهجمات التي تعرضت لها هذه اللغة وعلى أهم المحطات التي كانت تصارع فيها من أجل البقاء، وكانت أولاها ضد اللحن، فقام اللغويون والنحاة بعمل جليل يهدف إلى تحصين اللسان بالنسبة لأبناء العرب وتحصيله بالنسبة لغيرهم، وفي صدر الدولة العباسية واجهت اللغة العربية تحديًا آخر هو تحدي الشعوبية، فخرجت منه منتصرة بجهود الغيورين والحاملين سماحة الإسلام، وجاء عصر الركود فأثر سلبًا على العربية لزمن ليس بالقصير، يكاد يمتد إلى دولة الأتراك حيث استُغل هذا الضعف لتدخل العربية في مواجهة العصبية التركية، خرجت منها بتبني الحرف اللاتيني في كتابة التركية عوضًا عن الحرف العربي، فخسرت العربية جزءًا من جغرافيتها، ثم جاءت الفترة الاستعمارية فكانت المقاومة اللغوية تقف في الجبهات مثلما تقف المقاومة العسكرية،

فهذا عبدالحميد بن باديس يرفع شعاره التاريخي في مواجهة الاستعمار وهو «الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا»(2)، فيقرن القومية بالدين وبالقطرية في الدعوة إلى التحرر والاستقلال، وكان هدف المخطط الاستعماري هو القضاء على العربية و خاصة في الجزائر، فهذا اليوطي يقول في شأن اللغة: «من الناحية اللغوية علينا أن نعمل على الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية...، فليس علينا أن نعلم العربية للسكان الذين امتنعوا دائمًا عن تعلمها، إن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن، بينما تقضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج إطار الإسلام»(3).

والنص الذي قدمنا يشهر سلاحًا ذا حدين، فإذا كان هدف السلطات الاستعمارية هو إلحاق مستعمراتها لغويًّا أي فرنسة المحميات الفرنسية، فهو يتخذ لذلك طريقًا يجنبه الخسائر، فيفصل بين العربية واللهجات المحلية وكذا العاميات، فتم الفصل في شمال إفريقيا بين العنصر العربي والعنصر البربري(4)، ومن ثم تفكيك عرى المجتمع ليفسح المجال أمام سياسة المستعمر ويسهل عليه الانقضاض على الخصم.

فهذا إذن واقع اللغة العربية المرير حتى زمن الاستعمار، وبعد الاستقلال تم التخطيط لما يسمى بالتعدد اللغوي في البلدان العربية، والذي كانت معالجته إلى حدود منتصف القرن الماضي من باب العفوية تحكمها العادة والعرف والاعتباطية، فأصبحت معالجة الملف اللغوي من بين ملفات الشأن العام التي يفصل فيها السياسي قبل العالم، وحتى اللغوي الذي يتصدى للملف إنما يكون يهدف التموقع السياسي على حساب هذا الملف فكانت الحلول غالبًا ما تكون تعسفية.

تعايش اللغة العربية مع العاميات واللهجات المحلية في غالبية البلدان العربية، كالكردية في العراق والأمازيغية في المغرب العربي، وهذا لا يتهدد اللغة العربية لأن هذه الثنائية ما لم تأخذ طابعًا سياسيًّا عرقيًّا- فهي تتكامل وظيفيًّا مع الفصحى ولا تدخل معها في تنافس مصيري.

لكن الخطر الذي يتهدد العربية هو الازدواجية التي تعيشها مع اللغات الأجنبية سواء الفرنسية أو الإنجليزية، حيث ينظر للغات الأجنبية على أنها لغات التقدم والرقي الثقافي والعلمي، فتكون النتائج سلبية على هوية المتعلم وملكته وطاقاته التعبيرية(5).

تأثير اللغة على المجال السياسي :

نتبنى قولة د.عبدالله النفيسي فنقول: «يخطئ من يظن أن اللغة وعلومها هي من شواغل اللغويين والنحاة ولا علاقة لها بالحياة الاجتماعية والسياسية»، لكننا نلتمس له العذر في الخطأ؛ لأن الدراسات التي تبحث في علاقة اللغة العربية بالبعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي نادرة، رغم أن الخطاب اللغوي يعج بمئات النصوص التي تطرقت لقضايا واقعها بالتحليل والمعالجة، بدءا من الأشعار الجاهلية التي عالجت موضوعات الصلح والحرب والتفرقة، ومع ظهور الإسلام برزت نصوص تهاجم أعداء الإسلام ونصوص تناولت الخلافة والصراعات المذهبية وأصول الحكم(6)

وعلى العموم فإن علاقة اللغة بمنظومة السياسة مبنية على المصلحة، فاللغة أداة في أيدي الساسة قد تستعمل كسلاح أو كردع، احتواء أو استعبادًا، وفاقًا أو صراعًا، بناء أو هدمًا، جسرًا أو عائقًا(7)، فاللغة إذن مصدر للقوة، وهذه حقيقة أدركها الساسة والحكام منذ القديم من فراعنة ويونان وقياصرة وحتى المجالس البلدية والبرلمانية، وقد برع الخطاب السياسي في استخدام أسلحة اللغة، فهو يبطن أكثر مما يظهر، ويستخدم الكلمات الأخاذة ليلهب بها مشاعر الجماهير ويخمد نار سخطهم.

ونستطيع أيضًا أن نثبت العلاقة فيما كتبه رولان بارت عن نشأة البلاغة التي ترجع في أصولها الأولى إلى المحاكمات حول الملكية، حيث قام طاغيتان من صقلية جيلون حوالي 485 ق.م بتهجير السكان ونقلهم وبمصادرة (Heron) وهيرون (Gelon) للملكية من أجل إعمار سيراكوزة وتمليك المرتزقة، وبعد أن أطاحت بهما انتفاضة ديموقراطية، وأريدت العودة إلى الوضع السابق حدثت نزاعات قضائية لا تحصى...(8)، وكانت السبب في نشأة البلاغة.

ومن الشيق ملاحظة أن فن القول مرتبط في أصوله بالمطالبة بالملكية، بل إنه يسهم في تثبيت الأوضاع، كما يسهم في تغييرها أو إسداء النصائح أو إيصال المعلومات أو الإقناع برأي أو تجييش جيش أو التعبير عن موقف أو إدلاء بشهادة.

ونأسف عندما نجد الساسة العرب لا يعتزون بالعربية ولا يولونها العناية المستحقة رغم أنها لغة التكامل الاقتصادي والسياسي لهذه الأمة(9)، ولغة الإعلام النافذة في الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات الفضائية وكل هذه الوسائل أظهرت نجاعتها في ململة الواقع العربي وتمكين المواطن العربي من حقه في المعلومة مثل الجزيرة وأرت وقناة أبوظبي... ونأسف أيضًا لاستصدار وثيقة تنظيم الإعلام العربي من طرف وزراء الإعلام العرب، ودور وزراء الداخلية إنما ينبني في أساسه على تحديد المعلومة المرخص لها والمعلومة المحرمة، ولكون مصادر الإجرام والإرهاب غالبا ما تنسب إلى التضييق على الفرد في حقوقه بما في ذلك حقه في هويته وحقوقه اللغوية(10)

أثر اللغة على تطوير الاقتصاد :

لقد أصبحت المعرفة قوة دافعة ومحركًا أوليًّا للاقتصاد الحديث، فهي تعد من أهم وسائل زيادة إنتاجية العمال والمصانع والحقول، وهذه حقيقة يمكن الوصول إليها بكل اللغات، لكن إذا تمكن المواطن العربي من إتقان لغته واستعمالها فإنه يستطيع أن يبدع ويشارك في إثراء بلده، وقد أصبح الآن واضحًا للعيان مدى الارتباط القوي بين اللغة القومية وصناعة التحرر والاستقلال والتقدم الصناعي والاقتصادي والتبادل التجاري، يقول الفاسي الفهري: «إن تعميم العربية باعتبارها لغة التواصل الملائمة لدى القوى العاملة التي ستمكن من الزيادة في سرعة التنفيذ والإنتاج، بل إن تعزيز العربية في الإدارة والاقتصاد والاتصال والتكنولوجيا شرط ضروري للنمو الاقتصادي والتنمية الاجتماعية، وإن استعمال العربية بصورة ملائمة في تقنيات الإعلام الجديدة ستمكن من اتساع مجالها ودمقرطتها»(11).

ومن خلال رصد التقرير لأوضاع الاقتصاد العربي فإن هذا الأخير يتوفر على مؤهلات قوية وفرص للإقلاع لكنه لا يحسن استثمارها، فالعرب يمثلون قوة بشرية وسوقًا عربية

مشتركة، ولهم ثروة طبيعية وموقع جغرافي استراتيجي، إلا أن نسبة النمو ضعيفة ودخل الفرد لم يتغير تقريبًا خلال العقود الخمسة الماضية، والصناعات العربية تقليدية وليست صناعة قائمة على المعرفة، ومرد هذا الوضع بالأساس إلى عدم تطوير اقتصاد المعرفة ، إذ الأشياء لا تملك قيمة في نفسها بل بما تكتسبه من (12)القائم على اللغة أساسًا قيمة رمزية عند الجماعة البشرية التي تتداولها، وقيمتها مستمدة من قيمة جماعتها، ومثال ذلك الأوراق المالية وحتى السلع نفسها تجد سلعة الدول الضعيفة بخسة وسلعة الدول المتقدمة باهظة، وقد أسهب المفكر الغربي فلوريان كولماس في إيضاح علاقة اللغة بالاقتصاد، وتحدث عن الأهمية الاقتصادية للغة وطرق تفاعل اللغة مع الاقتصاد، وكيف ترجع اللغة الأقوى وكذا اللغة الموحدة على أهلها بالثراء(13).

كانت هذه إذن أهم المجالات التي تبرز فيها مكانة التنمية في تصورات اللغويين، ونعتقد أنها غير وافية؛ لأن اللغة هي رافعة التنمية وجسر العبور إليها، وهناك مجالات أخرى كميدان التعليم والإعلام والصناعة والفلاحة والبيئة، وقد أشار إليها التقرير إشارات خفيفة لا تشبع رغبة من يتطلع إلى المزيد.

المعوقات اللغوية التي تواجه استثمار التنمية البشرية:

نستطيع الجزم بأن هذه المعوقات لا ترجع إلى جوهر اللغة ولا إلى بنيتها بقدر ما تعود إلى ذهنية القائمين عليها، ونستطيع أن نصنف هذه المعوقات إلى صنفين:

1- صنف يتعلق بالضعف في تطوير المنظومة اللغوية، كصناعة المعاجم وتيسير قواعد النحو والصرف وتوحيد المصطلح ودعم الترجمة والتأليف بالعربية وإصلاح برامج التعليم.

وصنف يتعلق بمعوقات ذات مصدر غير لغوي مثل:

2- التعددية اللغوية التي تصل إلى حد التصارع، كما هو الحال بين العربية واللغات الأجنبية في المواقع الإدارية والتعليم العلمي، ويتخذ طابعًا تنافسيًّا مع اللهجات المحلية كالأمازيغية والعامية مثلًا، وهذا يحتاج إلى قرار سياسي وسياسة لغوية رشيدة تمكن اللغة الرسمية وظيفيًّا وعمليًّا في مجالات الحياة الاجتماعية كالتعليم والإعلام والمعلومات:

- عدم الاستثمار في اللغة العربية.

- عدم تعميم التعليم الأولي باللغة الرسمية.

- عدم تكافؤ الفرص في الشغل بالنسبة للمتعلم بالعربية مع غيره الذي تعلم باللغة الأجنبية .

- تقصير المجتمع في حماية اللغة.

المحافظة على اللغة العربية :

يجب أن تتحمل الدولة مسؤوليتها وكذا المجتمع في ترقية اللغة في مختلف ميادين المعرفة والثقافة والحياة العامة والأنشطة الفنية والإعلامية والإشهارية.

وضع نصوص تشريعية ملزمة لاستخدام العربية في كل مجالات التواصل والتعليم الأساسية، ورسم الخطط التنفيذية والإجرائية لتبني هذا الاختيار.

وضع حد للسياسات المزدوجة القائمة على سياسة صريحة رسمية (في النصوص التشريعية)، وسياسة ممارسة في الواقع قائمة على الاستعمال الفعلي للغة الأجنبية الذي يكاد يكون أحاديًّا في المعاملات الاقتصادية أو الإدارية أو التعليم العلمي والتقني.

تبني سياسة لغوية تنظر إلى اللغة على أنها مسألة هوية وخصوصية ينبغي الذود عنها دعم التعريب من لأسباب ثقافية وحضارية وتاريخية مرتبطة بالتنمية المعرفية والاقتصادية الروضة إلى الجامعة وتعميم التعليم بالعربية.

ضرورة تنمية اللغة العربية وارتباطها بالتنمية الاقتصادية وتنمية مجتمع المعرفة بما لا يتنافى وإتقان اللغات الأجنبية.

ولقد أتيحت الفرصة للغة العربية أن تصبح لغة علم وتقنية بمعجزة القرآن والإسلام، ولن تتاح للغة أخرى هذه الفرصة كذلك، وأي محاولة لتغيير اللغة العربية بلغة أجنبية سيبوء

بالفشل ويؤدي إلى هز الاستقرار والأمن في المنطقة العربية والإسلامية لما للغة من مكانة عند المواطن العربي والمسلم .

خاتمة:

و خلاصة أن اللغة العربية لا تتقدم و لا تزدهر إلا بنبض الشارع المتكلم بها والغيور عليها، والذي يعتبرها رمزًا للهوية التي ينبغي اعتبارها الجزء الأهم في أي دراسة أكاديمية ميدانية تجري حول اللغة إذا ما أريد للنظرية اللغوية أن تتطور، وتصبح فاعلة في تطوير المجتمع لما يوجد بين الاثنين من تكامل يصل إلى درجة الانعكاس، كما ذهب إلى ذلك كل من ابن حزم وابن خلدون عندما نص كل منهما على أن قوة اللغة في قوة أصلها، وغلبتها غلبة أهلها، يقول الأول: «إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمة علومها وأخبارها وقوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأما من تلفت دولتهم وغاب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم وبيود علومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة»(14).

ويقول ابن خلدون: «اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها، ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغير إعرابه، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم، والدين والملة صورة للوجود وللملك وكلها مواد له، والصورة مقدمة على المادة، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب لما أن النبي [عربي فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها...».

وإن العربية لا تستحق منا هذا الجفاء وهذا التهميش والسكوت على التكالب الخارجي، فهي تحتاج الآن إلى أعمال وقفية من طرف اللغويين أولًا بتضحياتهم، ومن طرف رجال الأعمال ثانيًا بأموالهم، ومن الحكام وأصحاب القرار ثالثًا بدعمهم وتشجيعهم.

الهوامش

1- أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، ط1، 1999.

2- ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، دون تاريخ.

3-جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبدالنور خراقي، عالم المعرفة، عدد 342، سنة 2007.

4-الحسن مادي، السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، منشورات مجلة علوم التربية، – 4- ط 1، 1999.

5-عبدالقادر الفاسي الفهري، دعم عبدالعالي الودغيري، اللغة والدين والهوية، ط 2000.
6-عبدالقادر الفاسي الفهري،اللغة والبيئة اللغة العربية، تقرير للألسكو، مارس 2004.
7-عمر عبيد حسنة، اللغة وبناء الذات، تقديم كتاب الأمة ع منشورات الزمن، كتاب 38. 101، سنة 1425هـ.

8- فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة 263.

9- قضايا استعمال العربية في المغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الندوات، نونبر 1993. الوحدة العربية ط 1، 2005.

10- محمد سبيلا، اللغة، دار توبقال للنشر، سلسلة دفاتر فلسفية، ط 1994.

11- محمد كامل حسين، اللغة والعلوم، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ع 12.

12-وجيه حمادة عبد الرحمان، اللغة العربية والحضارة الإنسانية، مجلة اللسان العربي، ع 35، 1991.